﴿سورة الفيل﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: ما دلالة الرؤية فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ ؟

قال جمهور المفسرين: إن الخطاب هنا للرسول ﷺ وهو وإن لم يشهد تلك الوقعة – لأنه ولد بعدها – لكنه شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها، فقام العلم بها مقام المشاهدة، فكأن الله ﷻ يقول له: (إنك رأيت أثار فعل الله بالحبشة وسمعت الأخبار به متواترة، فقامت لك مقام المشاهدة) [١]، وفى ذلك إشارة إلى أن العلم الحاصل بالتواتر له من القوة والحجية ما يساوى الرؤية البصرية .

كما أن فيها دلالة على تمام التسليم لكلام الله ﷻ وشدة اليقين به، فكأن المؤمن يرى حادثة الفيل ويؤمن بكل ما ورد فى قصتها فى القرآن الكريم كأنه رأها رؤيا العين أو أشد.

المسألة الثانية: ماسر التعبير عن جيش أبرهة بأصحاب الفيل ؟

هنا وقفة بديعة وهى أن الله ﷻ لم يقل (مُلَّاك الفيل) أو (أرباب الفيل) بل قال أصحاب الفيل ومعلوم أن المرء يصاحب بنى جنسه ومَن هم على شاكلته، فكأن الله ﷻ نسبهم إلى الفيل ليبين وضاعة شأنهم وحقارة مكانتهم، وأنهم قد نزلوا من درجة البشرية إلى درجة البهيمية والحيوانية، بل أقل منها فإن الأصحاب ينسبون إلى أعلاهم شأناً وأرفعهم منزلة، ألا ترى الناس يطلقون على الصحابة (أصحاب محمد ﷺ) فينسبونهم إلى نبيهم وهوأعلاهم منزلة، أما فى هذه السورة فقد نسب الله ﷻ جيش أبرهة إلى الفيل فكأن هذا الحيوان كان خيراً منهم وأرشد سلوكاً، ألا ترى أنهم كلما وجهوه جهة الكعبة ليهدمها بَرَك وقعد وكلما وجهوه بعيداً عنها هرول

---

(١) الكشاف ٨٠٥/٤

هارباً،قال الفخر الرازى:(كأنه يقول لهم لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) [1]، وهم لا يتعظون ولا يعقلون فكان هذا الفيل مع حيوانيته أرجح منهم عقلاً وأحفظ لحرمات الله منهم .

المسألة الثالثة: ما سر إهلاك الله تعالى لجيش أبرهة بالطيور دون غيرها ؟

وهذا سؤال قد يتبادر إلى الذهن حيث كان من الممكن أن يسلط الله ﷻ على جيش أبرهة الأسود فتفترسهم أو الحيات فتلدغهم، أو العواصف فتهلكهم، لكن العجيب أن يسلط عليهم الطيور وهى من ألطف المخلوقات وأكثرها أمناً للإنسان ، لكن هلاك جيش أبرهة جاء منها .

وقد بحثت في علة هذا الأمر فى كتب عدةٍ فى التفسير فما وجدت لذلك جواباً شافياً إلا ما كان من محاضرة ألقاها فضيلة الشيخ محمد بنصالح المغامسى إمام مسجد قباء فذكر فى ثناياها علة إهلاك الله ﷻ لجيش أبرهة بالطير فكان معنى قاله: إن الله ﷻ قد عذبهم بالطير، ولا يوجد أحد يوماً ما خوَّف أحداً من ذريته أو من قرابته أو من الناس بالطير، لكن لما كان البيت قد جعله الله للناس أمناً خوَّفهم الله ﷻ من حيث يأمنون، فلو قابلتهم سباع البرارى والوحوش الكواسر ربما خافوا منها وهربوا لأنها مظنة القتل والهلاك، لكن أن تظلهم طير فلا يمكن أن تكون مظنة الهلاك، لأنه لا أحد يخوِّف أحداً بالطير، وإنما يخوِّفه بالحيات والعقارب والوحوش فهم لما أتوا لبيت آمن وأرادوا أن يهدموه خوَّفهم الله من حيث يأمنون ... والله تعالى أعلى وأعلم .

المسألة الرابعة: ما معنى ﴿أَبَابِيلَ﴾؟

والجواب: أبابيل أى: (جماعاتَ يتبع بعضها بعضاً، يقال جاءت الخيل أبابيل: أي جماعات من هاهنا وهاهناقال النحاس:وحقيقته أنها جماعات عظام ، يقال فلان وبل على فلان : أي تعظم عليه وتكبر ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذي لا واحد له) [2].

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٢/٩٤

(٢) فتح القدير ٥/٧٠٥ .